الزّمن الرقمي وسؤال المؤتلف الإنساني

محمد نور الدين أفاية ■

لعلَّ كلَّ ما هو إنسانيّ ـ سواء تمّت مساءلته في الماضي أو في الحاضر ـ يطرح مُشْكلاً أخلاقيّاً في نظر فلاديمير يانكليفيتش، كيفما كانت الصيغة والسياق؛ كما يطرح تبعاً لذلك مشكلة المعنى. أما إيمانويل ليفيناس فيرى أن القضية الكبرى التي شغلت الفكر الإنساني ـ والفلسفة بشكلٍ أخصّ ـ تتمثل في إبراز ما هو إنسانيّ في الإنسان، ليس من خلال إقامة نظرية للمعرفة أو نظرية سياسية، بل بالانخراط الدائم في فَهْم معنى العلاقة مع الآخر بوصفه أصْلَ كلِّ علاقة بالوجود. ولذلك فإن أهمّ ما يمكن إنجازه هو تعبئة القدرات ـ باستمرار ـ من أجْل احترام اختلاف الآخر، وليس اختزاله في هوية واحدة، أو الإصرار على إخضاعه، بكل ما يقتضي ذلك من تعسّف وانتهاك لكرامة الكائن، الأمر الذي يستدعي خَلْخَلة مركزية الذات، وجَعْلَها تصير «ذاتاً» من أجل الآخرين.

ومن مظاهر زمننا أن الاختلافات ـ كما أنماط التآلف التي تتقدّم إلينا في المشهد اليومي ـ أصبحت تعبّر عن ذاتها داخل

■ أستاذ الدراسات الفلسفية الحديثة في جامعة محمد الخامس، المغرب.

فضاءات مُنزاحة، عابرة للأمكنة والحدود، وتعاند ـ بأشكالٍ متنوعة ـ حتى قدرات الدول على الضبط والتحكّم، وذلك بفضل عولمة الشبكات التي بِتنا ـ في الغالب الأعم ـ نتلقى بواسطتها خطابات ونشاهد صور الآخرين، سواءٌ تلك التي تنشد الارتقاء بإنسانية الإنسان، أو تلك التي تعمل بكل الطرق الوحشية على إضعافها وإنهاكها واستلابها. والمؤكد أن الثورة الرقمية ساعدت هذه الشبكات على الانتشار والتأثير، مُشخصة بذلك جدلية الاختلاف والائتلاف التي يعرفها عالمنا اليوم.

1 ـ في بعض مفارقات الثورة الرقمية

أصبح من قبيل البدهي القول: إن علاقة التكنولوجيات بالثقافة والاجتماع الإنسانيّ علاقة وطيدة، بدليل وجود العديد من المناقشات العالمية الجارية حول التغيّرات الكبرى التي تحدث للسياسات والمجتمعات والثقافات والقِيمَ، ولأنماط تدبير الحياة المادية والاجتماعية والنفسية، وفي مجال الحرية وأشكال «العبودية الطوعية»، بتعبير «إيتيان دو لابوويسي». ولعلَّ التقدّم غير المسبوق للتكنولوجيات والأدوات الرقمية ـ بواسطة الربط بالإنترنت عالي السرعة والحواسيب والهواتف الذكية واللوحات الإلكترونية، ومختلف أنواع التطبيقات، ومواقع التواصل الاجتماعي ـ بصدد اجتياح كل مجالات النشاط الإنسانيّ، بما لهذه الابتكارات التكنولوجية من قدرات على «صناعة» الروابط الاجتماعية الجديدة، ومن تداعيات واضحة على حياة الناس اليومية وعلى الديناميات الثقافية.

تقوم هذه الابتكارات بتغيير جُلِّ الممارسات وطرق التعامل والتبادل، وتتيح الحصول على المعلومات (مع إتاحة المواقع بشكل مفتوح)، وولوج مصادر المعرفة (المعاجم، الموسوعات، دراسات، وكتب..) والوصول إلى معطيات تهمّ الصحة والنقل والسفر.. وهو ما غيَّر ويغيّر جذرياً أنماط تنظيم وتدبير الشغل وأدوات الترفيه والتسلية، فضلاً عن أنها تمسّ التعبيرات الحميمية المتعلقة بالأمور الشخصية، كما يتمّ عرضها في مواقع التواصل الاجتماعي، والروابط الجديدة التي تنشأ من خلال الصداقات،

ومواقع المناقشة وتقاسم المعلومات مع الآخرين. ففي حالة «تويتر» يرى عبد الله الغذامي أنها جاءت لتوفر للإنسان «فضاءً حرّاً وحركة مستقلة حتى تحقّقت الفردانية بأدق تجلياتها، وكم ظلَّ الإنسان يتوق لفردانيته المطلقة وحريته المطلقة، وكان يحلم شعراً وخيالاً سردياً ويبحثها فلسفياً ولم يدركها الأفراد بصفاتهم الفردية على مدى التاريخ كله...»[1].

وقد أنتج هذا المدّ الجارف للتكنولوجيات الرقمية نوعين متضاربين من المواقف، حسب الباحث «ريمي ريفيل» Rémy Riffel :

بفضل عولمة الشبكات التي بِتنا نتلقى بواسطتها خطابات ونشاهد صور الآخرين، سواءٌ تلك التي تنشد الارتقاء بإنسانية الإنسان، أو تلك التي تعمل بكل الطرق الوحشية على إضعافها وإنهاكها واستلابها.

ـ موقف مُتحمّس يشيد بالإمكانيات الخارقة التي توفرها الثورة الرقمية، ولا تكفُّ عن ابتكارها وتطويرها من خلال الولوج المباشر (وغالباً ما يكون مجانيّاً) لكمية غير محدودة من المعلومات والمعارف والمعطيات، وما تسمح به من طُرقٍ جديدة للتواصل بين المنخرطين والمُبحرين في الشبكة العنكبوتية، وما تعرضه من تنوُّعٍ كبير في الاستعمال والاستثمار. ويرى «المتحمّسون» لهذه الثورة أننا بإزاء «ذكاء ابتكاري استثنائي»، يعبّر عنه الجيل المُنغمس في الرقمي، الذي يؤكد يوماً بعد يوم أننا نشهد إعادة تحديدٍ لطرق العيش والمعرفة، بل ونشهد على دخول البشرية إلى مرحلة مفصلية في تاريخها بواسطة هذا الاكتشاف الرقمي.

ـ غير أننا نجد ـ في مقابل ذلك ـ موقفاً مغايراً من التكنولوجيات ـ يتميّز بنوعٍ من القلق بسبب السطوة التي بدأت تمارسها على حياة الناس وعلى الروابط الاجتماعية، وما تحدثه من تغييرات تظهر على العلاقات جرَّاء الاستعمال المفرط لأدواتها، وبسبب الأشكال المختلفة للإدمان عليها؛

1 ـ عبد الله الغذامي، **ثقافة تويتر، حرية التعبير أو مسؤولية التعبير**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ـ بيروت، 2016، ص6.

فضلاً عن المخاطر التي تتعرض لها الناشئة، بسبب ما توفره المواقع المختلفة المشارب والمذاهب من مضامين ومؤثرات، وعمّا تتعرض له الحياة والمعطيات الشخصية من رقابة أو سهولة الكشف عنها.

ويدعو بعض أصحاب هذه المواقف إلى النضال ضِدّ سيطرة التكنولوجيات ـ الرقمية منها على وجه الخصوص ـ على حياة الناس؛ لأنها تهدد العلاقات الإنسانية بسبب أشكال الفردانية التي تنتجها، ويدعون إلى التحرر من «الانبهار الرقمي»، الذي يزجُّ بالناشئة في نوع من «العبودية الطوعية» والإدمان والاستلاب، وما تمارسه من تأثير على القِيَم والسلوكات والعلاقات وعلى الذاكرة. وفي هذا السياق يرى كلٌّ مِنْ «مارك ديغان» و«كريستوف لابي» أن المفارقات الكبرى للرقمي ـ واستناداً إلى اجتهادات بعض علماء النفس الأمريكيين ـ تتمثل في كون الدماغ بمجرد ما يعرف أن معلومةً ما مُخزنَة في سجلٍّ ما يمتنع ـ أي الدماغ ـ عن تذكُّرها؛ لأنه ترسخ لديه أن جُهْد استحضارها لا جدوى من ورائه ما دام مطمئناً على استمرارية تخزينها؛ الأمر الذي يسهم بالتدريج في إضعاف الذاكرة، ويكون من محفِّزات النسيان[2].

2 ـ اهتزاز المرجعيات

وعلى الرغم من أن التكنولوجيات الرقمية ثوَّرت «الممارسات الثقافية»، وأنتجت علاقات جديدة بالآخرين، بالإبداعية وبالمعارف؛ فإن المرء يجد صعوبات كبرى في استخلاص أو إنتاج أفكار حول موضوع متموج، من قبيل تأثير التكنولوجيات على عالم الثقافة والعلاقات التذاوتية. ومهما كانت هذه الصعوبة فإن «ريمي ريفيل» يرى أنه يمكن تسجيل جملة ملاحظات، منها:

2 ـ Marc Dugain et Christophe Labbé, *L'homme nu. La dictature invisible du numérique*, Ed. Robert Laffont/Plon, Paris, 2016, p. 180.

وقد قام سعيد بنكراد بترجمة هذا الكتاب بعنوان؛ **الإنسان العاري: الديكتاتورية الخفية للرقمية**، المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء ـ بيروت، 2019.

أولاً: إن التكنولوجيات الرقمية أدوات ذات حدين؛ فهي تمثل وسائل لحل مشاكل لا حصر لها يواجهها الإنسان، وتسهم في معالجة العديد من التعقيدات في كل المجالات؛ لكنها قد تشكّل سبباً في إنتاج العديد من الاضطرابات العلائقية والعملية. ولذلك بقدر ما خلقت الثورة الرقمية ـ ولا تزال تخلق تحولات ـ بل وقطائع تتفاوت تأثيراتها بحسب المجالات؛ تُوفر في الآن نفسه أشكالاً متنوعة من «الترابطية» والعلاقات. وهو ما أنتج نوعاً من «الفردانية المربوطة»، تسمح بفرص التفاعل، وتولد آليات الاعتراف[3].

إنّ التكنولوجيات الرقمية أدوات ذات حدين؛ فهي تمثل وسائل لحل مشاكل لا حصر لها يواجهها الإنسان، وتسهم في معالجة العديد من التعقيدات في كل المجالات؛ لكنها قد تشكّل سبباً في إنتاج العديد من الاضطرابات العلائقية والعملية.

ثانياً: إن الرقمي خلخل تراتبيات مختلفة في التعليم والعمل والمعرفة والسياسة، كما زعزع الحدود ما بين الإبداع والإنتاج والمستهلكين؛ بحيث تخلق التكنولوجيا الرقمية ثقافةً «تعاونية» بفضل «الويب» ومواقع التواصل الاجتماعي، تشجع الهواة وتسهل رواج الأعمال التي تبدو «هجينة»، كما تسمح بالمجانية.

ثالثاً: تتيح التكنولوجيات الرقمية تجريب مهارات ذهنية جديدة، بفضل الاستعمال الكثيف لأدوات التواصل الجديدة، وألعاب الڤيديو، كما تسمح بولوج مضامين ثقافية في كل مجالات الإبداع والتعبير، وتسهم في تغيير إدراكات مستعمليها للعالم، والمجتمع والقِيَم.

رابعاً: وفّرت التكنولوجيات الرقمية ما يسمّيه البعض بـ «دمقرطة المعارف»، حيث سهّلت الوصول إلى المعلومات في كل المجالات (من معاجم، وخزانات، ومواقع علمية ومجلات..)، فضلاً عن أن التكنولوجيات الرقمية حرّرت الكلام العادي، ووسعت من دوائر التعبير عن الآراء

3 ـ Remy Rieffel, *Révolution numérique, révolution culturelle* ? Ed. Gallimard, Paris, 2014, PP .107-108.

والمواقف، بطريقة أفقية ومفتوحة، بحيث يتداخل في فضاءاتها ما هو بنّاءٌ وإيجابي مع ما يمكن عدُّه غير بناء.

خامساً: عمل الرقمي على زعزعة اليقينيات والقناعات والعادات، وأنتج أخرى مختلفة من حيث موضوعاتها وأشكال التعبير عنها، وهو ما أفضى إلى تحولات ومخاطر، منها:

أ ـ اهتزاز المرجعيات التقليدية من الناحية الثقافية، إبداعاً، وإنتاجاً، ورواجاً.

ب ـ تقلّص أدوار المؤسسات الوسيطة والوسطاء في المجتمع، أو ضعف تأثيرهم.

ج ـ سطوة الآنية، ومقتضيات زمن المدى القريب، والتأثير الكبير للنواحي التجارية، الحاضرة بقوة في المواقع والشبكات.

وبناءً على ما تقدّم يمكن القول: إننا نعيش مرحلة تخطّت مفردات «الخطاب الطوباوي» عن الإنترنت الذي كان يُبشِّر بأفق إنساني ديمقراطي وتشاركي «فاضل»؛ بحيث نشهد كيف أن دولاً كبرى وظّفت العُدّة الرقمية لتوجيه اتجاهات تصويت ناخبين في أعرق الديمقراطيات (بريطانيا، أميركا...)، وكيف تغلّب المنطق التجاري لمتعهدي الإنترنت الكبار على كل النواحي التي بشّرت بها الثورة الرقمية، وكيف تمكّنت جماعات التطرف العنيف بفضلها من توسيع دائرة الاستقطاب لأفكارها وتوجهاتها، وكيف عملت دولٌ على استخدام أدواتها للتأثير على مواطنيها ومراقبة أفكارهم واختياراتهم، وكيف تتسبب هذه العدّة التقنية في إضعاف الذاكرة، وتلويث الحواس، والتشويش على التفكير والتمييز، ونسيان الكائن، والتعايش مع تعبيرات متنوعة للاستلاب والتبعية. وتأكد من دون منازع أن هذه العدّة تمتلك قدرات لا محدودة على تطويع الأذواق، وتوجيه السلوكات، ومراقبة الرغبات.

وفي كل الأحوال فإن التكنولوجيات الرقمية ليست سوى انعكاسٍ للطرق التي بها يستعملها الناس، بحكم أن تأثيرها على الثقافة والقِيَم لا يمكن فَهْمُه، حقّا، أو الإحاطة بسهولة بانعكاساتها على السلوك والمواقف خارج

الفاعلين الذين يستعملونها، وخارج السياقات العامة التي يتمُّ فيها هذا الاستعمال؛ ذلك أن هذه التكنولوجيات تخلق عالماً يتغير بسرعة فائقة من دون أن يعرف المرء ـ بيقينية ـ طبيعة الحاضر الذي يتشكّل أمامه، ولا نوعية المستقبل الذي سيحصل للإنسان والزمن والجسد والموت.

3 ـ حياة يومية جديدة؟

لقد دخلت مجموعة من التكنولوجيات إلى منازلنا ومحفظاتنا وجيوبنا، منذ ما يتجاوز ربع قرن، وعملت على خلخلة حياتنا اليومية، وغيّر دخول الإنترنت والتكنولوجيات المصاحبة له شروط العمل والبحث، التي وفّرت إمكانيات التواصل المباشر واللامحدود مع العالم؛ ذلك أن التفاعل مع الآخرين ـ سواء عن طريق الصوت والصورة أو الكتابة ـ يفرض علينا إيقاعاً تبادلياً جديداً، وأحياناً غير مريح، فضلاً عن وفرة كمية هائلة من المعطيات، أصبحت تستدعي انتباهاً ونظرة نقدية لم يتعوّد الإنسان على تعبئتهما. ولعلَّ هذا المنعطف الكبير تحوّل إلى «موضوع فلسفي في منتهى الأهمية»، كما لاحظ «أمبرتو إيكو»[4].

إذا كان ولوج الإنترنت وغرف الدردشة تعبيراً عن زمن تكنولوجي مُغرٍ وساحر؛ فإنه أيضاً مجالٌ لتفريغ العديد من مظاهر الإحساس بالفراغ النفسي والوجداني لدى شريحة لا بأس بها من مستعملي هذه المواقع.

وإذا كان ولوج الإنترنت وغرف الدردشة تعبيراً عن زمن تكنولوجي مُغرٍ وساحر؛ فإنه أيضاً مجالٌ لتفريغ العديد من مظاهر الإحساس بالفراغ النفسي والوجداني لدى شريحة لا بأس بها من مستعملي هذه المواقع، خصوصاً في سياق اجتماعي واقتصادي تطغى فيه النواحي المادية والمصلحية والفردانية. حيث إن الذات أصبحت تنتمي إلى عالمٍ مغاير مع

4 ـ Umberto Eco, Le portable et la vérité, Préface au livre de Maurizio Ferraris, *T'es ou? Ontologie du téléphone portable*, éd, Albin Michel, Paris, 2006, p. 9.
Voir aussi, Albin Gonord et Joelle Menrath, *Mobile attitude. Ce que les portables ont changé dans nos vies*, éd, Hachette, Paris, 2005.

الإنترنت كما تعتبر «إلزا غودار»؛ عالم يمكن تسميته «مرحلة السيلفي». ليس العالم هو ما ترى بمقدار ما يعمل بابتكاراته اللامتوقفة على تغيير الإدراك الذي نحمله عن ذواتنا، بسبب التعلق القوي الذي يميّز علاقاتنا بالأدوات الرقمية: هاتف، شاشة، آلة تصوير، حاسوب، وهي أدوات «ذكية»، تمتلك قدرات الربط بيننا وبين الآخرين، بين ما يحسُّ به المرء وما يقترحه المرء على الآخرين من صور ومضامين[5].

ولعلَّ الواقع الجديد الذي خلقته مواقع التواصل الاجتماعي ـ بكل أصنافها ـ أنتج معطيات وفضاءات تعبّر عن إحساس مغاير بالوجود بالذات، وتوفّر هذه المواقع للمشاركين بناء هويات جديدة، وانتحال شخصيات مختلفة، وتقديم أسماء وعناوين متعددة. وهنا تكمن إحدى مشكلات التكنولوجية الرقمية ومواقع التواصل الاجتماعي؛ ذلك أن الاتجاه الذي يقول بأن تكنولوجيات التواصل غيّرت سلوكاتنا في اتجاه سيئ؛ يَذْهل عن كون هذه التكنولوجيات مثلت عاملاً كاشفاً لنزوعاتنا، حين سمحت لمزايانا كما لنقائصنا أن تظهر بأشكال مختلفة، فضلاً عن تأثيرها الكبير على محيطنا القريب. ولعلَّ ظاهرة تصوير أحاديث وحكايات عن مشاكل عائلية بطرق درامية وفرجوية بل وفضائحية (وهي قصص وأشرطة لا تعد...) وعرضها على العموم تشكّل ظواهر تتطلب دراسة أبعادها السوسيولوجية والأنثروبولوجية، مما تتضمنه من تعبيرات «الشوهة» أو الإعجاب، أو نوعية المشاركة، والتطلع، والتعرف، والتعارف، والاعتراف...

من هذه الزاوية، يرى باحثون أن مواقع التواصل الاجتماعي تشكّل «مرآة» للمجتمع، حيث أصبح الرأي يصنعه مجهولون أو أناس عاديون، يتحولون بفعل هذه المواقع إلى نجوم وشخصيات مشهورة. وإذا كان البعض يرى أن العالم الافتراضي الجديد يسعف في إظهار المجتمع على «حقيقته»، أو على الأقل في «واقعيته»؛ فإن هذه المرآة بالنسبة لآخرين مُشَوهَة؛ لأنها

5 ـ Elsa Godart, *Je selfie donc je suis. Les métamorphoses du moi à l'ère du virtuel*, éd Albin Michel, Paris, 2016, p. 14.

تصرُّ على استعراض أبشع مظاهر هذا المجتمع. هكذا اهتزت القواعد والمعايير بين الإنتاج والاستهلاك والتواصل، بعدما تحول المستهلك إلى منتج للمضامين، وإلى فاعل في مسار التواصل. وهو ما يولد وسيولد تغييرات وجدانية وذهنية واجتماعية كبيرة، حيث بدأت ظواهر في البروز بعنف، من قبيل انفجار عائلات بشكلٍ فرجوي، انتحارات، مظاهر التحرش المختلفة (التحرش بالأطفال، أشكال الابتزاز...).

وبقدر ما تُغير الثورة الرقمية طرق تدبير شؤون الدولة والإدارة والشغل والاقتصاد؛ فإنها بصدد خلخلة أشكال التواصل والروابط الاجتماعية، وإنتاج مواقف وسلوكات وقِيمَ جديدة تماماً، لدرجة يذهب فيها البعض إلى أننا نشهد بروز «إنسية رقمية»، بفضل الأدوات التكنولوجية التي لا تتوقف عن التجدد والإبهار، وهو ما يستدعي إعادة النظر في المنظومات التي تؤطر الممارسات التربوية وأنماط التواصل، كما في مرجعيات القِيمَ الإنسانية المرتبطة بالعمل والهوية والصداقة والتسامح والرابط الاجتماعي والحرية... إلخ، بحيث تفرض الثورة الرقمية تصورات وممارسات جديدة للثقافة، بحكم كونها تؤسس لعلاقات مختلفة تماماً ومتجددة دوماً بين الأدوات التكنولوجية وبين الإنسان، على كافة المستويات المرتبطة بالتصور والعمل والتدبير والإبداع والتلقّي.

لعلَّ الواقع الجديد الذي خلقته مواقع التواصل الاجتماعي ـ بكل أصنافها ـ أنتج معطيات وفضاءات تعبّر عن إحساس مغاير بالوجود بالذات، وتوفّر هذه المواقع للمشاركين بناء هويات جديدة، وانتحال شخصيات مختلفة.

لذلك لا مناص من النظر إلى العلاقة بين التكنولوجيا والمجتمع، وما تحدثه من مؤثرات على الروابط الاجتماعية والقيم في تفاعلهما مع «الممارسات» و«الاستعمالات» الجديدة التي تنتجها. تغيِّر عمليةُ تملُّك التكنولوجيات واستعمالها لا محالة ـ وبدرجات متفاوتة ولا شكّ ـ حياتنا وعلاقاتنا والقيم المؤسسة لهذه العلاقات، ولا سيما بالنسبة للناشئة والشباب، الذين فتحوا أعينهم على الأدوات الرقمية، واستدمجوها في كل

مستويات وجودهم الإدراكي والشعوري والاجتماعي والثقافي (الترفيهي والتعليمي)؛ أي أن استعمال التكنولوجيات غدا مُكوناً للبناء الاجتماعي، الذي يشمل كل المقومات الاقتصادية والثقافية التي تميّز الكثير من المجتمعات.

من هنا تأتي أهمية التساؤل عن الأبعاد الاجتماعية والوجوديّة للتكنولوجيا، وتداعياتها الثقافية، والقيمية وعن تمفصلات الاختلاف والائتلاف، والنظر في قدرات المجتمع على التدبير الأنجع لهذه الأدوات، حتى ولو كانت «ثورية» وملزمة اليوم؛ فتطور التكنولوجيات ـ ولا سيما توسع استخدام الإنترنت ـ لا يمكن الاقتصار في التعامل معه على زاوية طرق استعمال العُدة التقنية فقط؛ وإنما يتعيّن مواكبة طرق استقبال وفهْم وتصريف مضامينها، ودلالات الأفكار والقيم التي تموج في المسارات الشبكية، وتأثيرها على المواقف والسلوكات والعلاقات الاجتماعية (كما يحصل ذلك في منتديات المناقشة و«البلوغات» ومواقع التواصل الاجتماعي...).

4 ـ في أسئلة الوجود الجديدة و«الإنسان المُستزاد»

وفي هذا السياق تنتشر كتابات كثيرة حول الآثار الكبرى التي تمارسها التكنولوجيات على حياة الإنسان، على جسده ودماغه وحواسّه وقدراته، وبِتْنا نواجه أسئلة متجدّدة حول الوجود والحرية والزمن والمرض والموت والحب، ومستقبل العلاقات التذاوتية؛ سواء من زوايا «علمية»، أو فلسفية، أو أخلاقية، أو حتى دينية. يتعلّق الأمر بحركة «الترانزيمانيزم» Transhumanisme، التي تتمثل في وصفها ـ حسب العديد من التعاريف ـ «حركةً فكرية وثقافية»، تدعو إلى إدماج العلوم والتقنيات لتحسين القدرات الجسدية والذهنية للكائن البشري. وتبشّر هذه الحركة بالإمكانيات اللامحدودة التي توفرها التكنولوجيات؛ لتجاوز مظاهر النقص في الإنسان، واستبعاد أسباب الهشاشة والعجز، وذلك من خلال «تقوية» كفاءاته الفكرية، والفيزيولوجية، والنفسية. ومن ثمَّ نعتت هذه الحركة بكونها مرحلة «الإنسان المُستَزاد»، أو «ما بعد الإنسان».

يطرح هذا الموضوعُ تحدياتٍ كبرى على المفكرين والباحثين، كما على الفاعلين السياسيين والاجتماعيين، بحكم كونه يتفاعل مع تأثيرات التكنولوجيات، ومع ما تقترحه «ما بعد الإنسانية» من تصورات وأسئلة عن الوجود، وما تفترضه من رهانات أخلاقية وثقافية، ومن مسؤوليات سياسية واجتماعية. ويَعُدُّ «الترانزيمانيزم» أن الإنسان نتاج عملية تطور، وبأن العقل الإنساني يتغيّر مع تسارع التكنولوجيات. وستكون لهذه التغييرات تداعياتٌ أكثر أهمية بفضل التكنولوجيات التي تؤثر على تطور الفرد والجماعة، في الواقع وفي الحياة، بل وعلى النوع البشري برمّته. فالتدخلات الطبية يمكنها إطالة العمر (يمكن أن تتجاوز معدلات العمر 100 سنة بحسب العديد من توقعات مبشري الإنسان المُستَزاد...)؛ إذ ما دامت البشرية قد تغلبت على الأمراض القاتلة وعلى وفيات الأطفال؛ فبإمكانها التغلب على ما يهدد الحياة. وهكذا يركز هذا التصور على أن النوع البشري نتاج تطور، ويمكن للإنسان إدارته، على أساس أن التكنولوجيات توفر إمكانيات غير محدودة في المساعدة على التحكم في مصير الإنسان، فضلاً عن أنها تسعف في تطوير الإمكانات العقلية والانفعالية.

تأتي أهمية التساؤل عن الأبعاد الاجتماعية والوجوديّة للتكنولوجيا، وتداعياتها الثقافية، والقيمية وعن تمفصلات الاختلاف والائتلاف، والنظر في قدرات المجتمع على التدبير الأنجع لهذه الأدوات.

يحصل ذلك بفضل تلاقي أربع تكنولوجيات: النانوتكنولوجيا (صناعة الذرات الصغيرة جدّا)، البيوتكنولوجيات، المعلوميات، والعلوم الذهنية. ولهذه التكنولوجيات ـ كافةً ـ تداعياتٌ إنسانية ومالية وصناعية وثقافية كما أن لها تأثيراتٍ سياسيةً أكيدة على صعيد العلاقات البشرية، وعلى طرق تدبيرها، وعلى أنظمة الحكم.

من هنا برز الحديث عن الكائنات الهجينة Hybride، والسيبورغ Cyborg؛ أي الجمع بين الجسم العضوي والسيبرنتيقا، من خلال صنع كائن «حي وذكي»

قادر على التواصل والتفكير والتوقع. لا شـكَّ في أن هذه الأدبيات بدأت في كتابات «الخيال العلمي»، و«المستقبليات»، منذ خمسينيات القرن الماضي، كما عملت السينما على تقديم مختلف «شخصيات» هذه النماذج التي تجسد العلاقة العضوية بين الكائن البشري والآلة، كما هو الشأن مع سلسلة أفلام «تيرميناتور» التي دشنها المخرج «جيمس كاميرون» سنة 1984، أو العلاقات الحميمية كما أبرزها فيلم «هي Her» للمخرج «سـبايك جونز» سنة 2013، وأفلام أخرى عديدة.

تشهد البشرية لحظة انعطاف لا مثيل لها بحكم انخراطها التدريجي في طور جديد، تعمل فيه التكنولوجيات على القيام بتعديلات جوهرية على الحياة الإنسانية بطرق أكثر جذرية مما شهدته مع اكتشاف اللغة والكتابة والمطبعة، وإن العالم يعيش ثورة صناعية جديدة تعمل على خلخلة أنماط الحياة والوجود. وإذا كان الإنسـان في الفترات السـابقة بحث عن حلول تقنية لحل المشكلات (المطبعة، الفلاحة، المحرك البخاري، الكهرباء..) فإن ما نشهده اليوم من تحولات تكنولوجية غير مسبوقة يصعب التنبؤ بدقة بمفعولاتها على المستقبل؛ فالبشرية قد انتظرت 38 سنة لكي تحصل على 50 مليون مسـتمع للإذاعة، ولكنها انتظرت شـهوراً قليلةً للوصول إلى 50 مليون مشـترك في تويتر، وهو ما ينطبق على وسـائل أخرى في السـياحة والنقل (أوبير). إننا نوجد في عالم مربوط بالإنترنت فضلاً عن التلفزيون، والسـيارة، واكتشـافات أخـرى في الطـبّ. كما هو الشـأن مـع الذكاء الاصطناعي حيث نجد آلات بدأت تقوم مقام الإنسان، وسيتطور ذلك بشكلٍ كبيرٍ وغير منتظر.

غير أن هذه الثورة غير المسبوقة تطرح تحديات كبرى على الإنسانية، فإذا كانت التكنولوجيات ـ ولا سـيما الذكاء الاصطناعي ـ تحل المشـاكل وتعوض أدوار البشر؛ فإنها تهدد عدداً كبيراً من المهن ومن فرص العمل، خصوصاً وأن «الروبو» قادر على القيـام بعمليات معقدة وعديدة في الوقت نفسه أكثر مما يقدر الإنسان على القيام به.

من جهةٍ أخرى يبدو إنسان اليوم مبهوراً بما توفره العُدَّة التكنولوجية من إمكانيات، وبما تقترحه عليه من ممكنات على صعيد «تصحيح أخطاء الطبيعة» وتقوية قدراته، بل واستعمال آلات قد تخلق من المتعة الجسدية ما لا يعرفه الفعل الجسدي الطبيعي، كما هو الشأن مع ما يسمى بالإنسان المستزاد L'homme augmenté: من قبيل وضعيات ناس معدّلين (من خلال تدخلات طبية...)، والإنسان المغيّر (الاستعانة بوسائل لتحمل الأثقال مثلاً)، وتقوية الإنسان بواسطة شحن ذاكرته في أسطوانة، أو شرائح، أو إضافة القدرة على البصر أكثر من 10 مرات؛ لا سيما وأن الإنسان يمتلك دماغاً له طاقات كبرى أكثر مما يتوفر عليه الجسم.

تشهد البشرية لحظة انعطاف لا مثيل لها بحكم انخراطها التدريجي في طور جديد، تعمل فيه التكنولوجيات على القيام بتعديلات جوهرية على الحياة الإنسانية بطرق أكثر جذرية مما شهدته مع اكتشاف اللغة والكتابة والمطبعة.

5 ـ بين الحرية المُعلّقة والمؤتلف الإنسانيّ

لا جدال في أن هذه الموضوعات تطرح أسئلة كبرى على الجميع، تتعلق بالحرية وبالفوارق في الوظائف بين ما توفره التكنولوجيات ونوعية العمليات «الطبيعية» التي يقوم بها الدماغ، ومدى التوافق بين الإمكانيات التكنولوجية والإمكانيات البيولوجية، وهل يمكن تجاوز «تعقّد» الكائن البشري كما هو حال عمليات التذكر، بحكم أن الذاكرة العضوية تعتمد على الإنسان وعلى التذكر الدائم. كما يواجه المفكرون قضايا تهمّ الثقافة، ومسلسل التدمير أو الاستلاب التي يمكن للتكنولوجيات أن تقوم به لـ «هوية» الإنسان. وتأسيساً على ذلك يواجه المرء رهانات مختلفة من قبيل: من سيتحكم في هذا المسار: الآلة أم الإنسان؟ ماذا سيحصل على صعيد الأذواق والحاجات الروحانية، والانفعالات، والجماليات؟ ما الدلالات التي ستكتسبها مفاهيم الحقوق الأساسية، مثل الحرية، والكرامة، والأمن، والحقّ في الحياة، وفي الصحة، والثقافة، والتربية، والحياة الخاصة...؟ ما هو مستقبل الحقوق الاجتماعية والمدنية والجنائية والدولية؟ ما حجم

تأثير التكنولوجيات على الشـغل (حيث يتوقع أن عشرين بالمائة وأكثر من المصانع سـتكون مُؤَللة)؟ ما مدى تأثيرات الذكاء الاصطناعي على أنماط الحيـاة والعلاقات التذاوتية؟ هل سيسـاعد الإنسـان علـى أن يصل إلى الإحساس بالرضا، وأن يضمن شروط التوازن؟

ما يثير انتباه المتتبعين هو أن هذه الأسـئلة لا تجد لها أجوبة واضحة ومقنعة إلى الآن، لا سـيما وأن بعض أصحاب القرار موزعين بين عدِّ الأمر أنه لا يزال في إطـار الخيال العلمي، وبين مـن يحرّكه حماس غير منقطع للانخراط في الرقمنة التدريجية للعالم. والحال أن مؤشرات عديدة تبيّن أن الموضوع يتعلّق بإنسانية جديدة تفرض ذاتها على المجتمعات، من قبيل إدخال «أنا أعلى» في الآلات تتحكم في طريقة تفكير الإنسان وفي اختياراته وفي ذوقـه، وحتى في البحـث عن شـريك حياته؛ لدرجـة أن خوارزميات وحسـابات رقمية اخترقت حيوات الناس اليومية بدعوى تسـهيل حركاتهم وعلاقاتهم[6]؛ غير أنها في الواقع أصبحت تتحكم فـي ميولاتهم ورغباتهم، وذلك بإنتاج أنظمة أكثر دقة وشـمولاً، وأجهزة تمارس رقابتها على الناس بشـكلٍ غير مسـبوق في التاريخ. وهو ما سبق لجيل دولوز سـنة 1990 أن سمّاه «مجتمعات الرقابة»[7].

أما الكائنـات الآلية التي أصبحت تتطوّر بشـكل كبير (في البورصات، والحروب...)، أو السيارة الذاتية تقنياً؛ فيفترض معالجاتٍ جديدةً لقضايا تتعلّق بالقانون والمسـؤولية. ويرى «جان ماريانـي» و«دانيال تريتش» أنه يتعين الاحتفاظ بمنسوب من المسافة إزاء الحماس الكبير الذي يحرك من يعتنق أحد تيارات «الترانزيمانيـزم»؛ لأن التكنولوجيات التي يعوِّلون عليها صحيح أنها تتقدّم بسرعة فائقة؛ إلا أن بشـائرها قد لا تكون سوى أوهام،

6 ـ للمزيد من التوسع في هذا الموضوع، انظر:
Dominique Cardon, *A quoi revent les algorithmes. Nos vies à l'heure des big data*, éd Seuil, 2015.

7 ـ الواقع أن دولوز في هذا المقال كان تحت تأثير فكر ميشيل فوكو حول الرقابة وأجهزة الضبط، والكاتب ويليام بورو. انظر:
Gilles Deleuze, *Pourparlers, 1972- 1990*, éd. Minuit, Paris, 2003, p. 240.

لذلك لا بدَّ مِنْ خَلْق المسافة الضرورية ما بين «اقتصاد البشائر» والتطور العلمي الحقيقي[8].

ومعلومٌ أن هناك تيارات مختلفة داخل أدبيات «ما بعد الإنسانية»، وخلافات في التصور والاستشراف؛ غير أن ما هو ثابت هو أن مستقبل الإنسانية سيخضع إلى تغييرات جذرية، بحكم أن الحياة يمكن تغييرها، على صعيد تقوية مقدرات الجسد، والحالة النفسية، ورفع المعاناة، واكتشاف الكون، والحرص على الحق المعنوي المبدئي في حرية كل واحد على القيام باختيارات لتحسين الحياة، والتفكير في رفاهيته.

معلومٌ أن هناك تيارات مختلفة داخل أدبيات «ما بعد الإنسانية»، وخلافات في التصور والاستشراف؛ غير أن ما هو ثابت هو أن مستقبل الإنسانية سيخضع إلى تغييرات جذرية، بحكم أن الحياة يمكن تغييرها.

غير أن مفارقة الشركات الضخمة التي تستثمر في البحوث الساعية إلى ابتكار آلات ووسائل تبشر بطور «ما بعد الإنسان» ـ مثل «غوغل» ـ هي من بين الشركات التي لا تراعي المعايير والقواعد التي تندرج ضمن «الحقوق الأساسية» من قبيل احترام الحياة الخاصة، ومسؤولية الوقاية من السلوكات القاسية أو الحاطَّة من الكرامة، أو احترام المسؤولية الاجتماعية. فكيف يمكن تحديد المسؤولية على الحدِّ من المخاطر في حالة اكتشاف المقاولة لمنتوج يحمل في ذاته مخاطر؟ ذلك أن «غوغل» بصدد ابتكار آلة يُروج أنها واعية بذاتها، وتمتلك قدرات ذاتية لا محدودة، وتوفّر شروط «الخلود»؛ غير أن «غوغل» بوصفها شركة ـ كما يلاحظ المراقبون ـ بقدر ما تحترم الالتزام الاجتماعي والدعم الخيري إلا أنها تقتصد في نشر المعلومة، ولا تراعي الحياة الخاصة، كما لا تحترم مقتضيات المسؤولية الاجتماعية إلا بنسبة 30 بالمائة فقط.

8 ـ Jean Mariani, Daniel Tritsch, *Ca va la tête! Cerveau, immortalité et intelligence artificielle, l'imposture du transhumanisme*, éd Belin, Paris, 2018.

لقد انخرطت الصناعة الرقمية في عملية «غزو» شاملة للحياة، وتسعى ـ بالتدريج ـ إلى تكييف كل مستويات الوجود، من المستوى الحميمي إلى عالم الشغل، والصحة، والتنظيم الحضري. ويرى العديد من المفكرين أننا بصدد عملية كلية لـ «تبضيع» العالم ومَكْنَنة الحياة؛ لأن الإنسان كان يكتشف تقنيات من أجل الاستجابة لمهام «وظيفية»، أما اليوم فإنه يسلم كثيراً من أدواره للتكنولوجيات، وبناءً على ذلك فإن قدرة الإنسان على التقدير والحكم وعلى التصرف بوعي وبحرية قد تتعرض للتهديد في علاقته بذاته كما بالآخرين؛ فما هو مقترح على العالم اليوم، يتمثل في نوع من المواجهة بين حضارتين: الأولى ذات نزعة إنسانية تعمل ـ أو على الأقل تدعو إلى ـ الحفاظ على الاستقلال الذاتي وعلى إمكانيات التعقّل والحكم والعمل بحرية نسبية، وعلى الإعلاء من شأن المؤتلف الإنساني. وأما الثانية فتبحث عن إخضاع الناس لمنطق «تشييئي»، وعن «تبضيع» مظاهر الحياة، وتأطير الوجود الإنساني بواسطة أنظمة تقنية.

والظاهر أن الرهانات التي تفرضها «الإعلاميات الذهنية» والفلسفة الحاملة لها تستدعي يقظة فكرية وسياسية لحماية مبدأ الاستقلال الذاتي، القاضي باحترام حرية الإنسان في التقدير والتفكير. وإذا ما تحمّس لما يحصل فعلى الأقل أن يكون ذلك على أساس امتلاك القدرة على الحكم وعلى القرار المستقل، ضمن شروط تراعى فيها كرامة الإنسان وتعدديتة وغنى الحياة الإنسانية، ما دام استعمال التكنولوجيات من المفروض أن يصبّ في مصلحة الإنسان. لقد عرفت البشريةُ ثوراتٍ كبرى، تمثلت في اكتشافات اللغة والكتابة والمطبعة والكهرباء، ومختلف وسائل النقل، وغيّرت هذه التحولات وجه التاريخ وخدمت البشرية. أما التكنولوجيات الرقمية ـ وإن كان من الصعب التقليل من إيجابياتها العظيمة ـ فإن ارتهانها لشركات عملاقة لها سلطات لا متناهية، وتوسعات «كونيّة» فإنها قد يجعلها تهدد أنظمة سياسية، كما تختزل الإنسان إلى كائن ـ بضاعة. لقد تمكنت هذه الشركات من خَلْق صناعة جديدة، واستفادت من الليبرالية، التي على الرغم من كونها لم تدّع إسعاد كلِّ الناس؛ فإنها ـ مع ذلك ـ كانت خاضعة

لقيــود ولقوانين. أمــا «الليبراليــة ـ التكنولوجية» فيبدو أنهــا تخترق كل الحدود، بما فيها الحياة الشخصية، وتعمل ـ بسرعة فائقة ـ على خَلْق حالات استلاب جديدة، و«عبودية طوعية» أو لا واعية للوسائل الرقمية، فضلاً عن مظاهر «تبضيعٍ» للثقافة وللعلاقات الإنسانية.

ولعلَّ الثورة الرقمية لن تعرف ما عرفته الثورات التي شهدتها البشرية كافة؛ إذ لا يبدو أن سلطة لا متناهية الاندفاع الابتكاري تمتلك قدرات على اختراق كل مناحي الحياة، وخلخلة مجالات القياس والحكم ـ قامت بما تقوم به الثورة الرقمية؛ بل هناك من لا يرى فيها سـوى البدايات؛ لأنها مصدر لمختلف أشكال الانفصامات من دون ممارسة أي إكــراه أو عنــف مــادي[9]. ويلاحــظ «موريزيو فيراريز» أن «المجتمعــات المتقدّمة تكنولوجيا لم تشهد طيلة القرنين الماضيين انتشاراً أحادياً للرأســمالية (منظوراً إليها هنا تــارة كانتصار، وأخرى كانهيار، ولكن فــي كل الأحوال بوصفها ظاهرة مسترســلة فــي الزمان)، وإنما شــهدت تسلســلاً لثلاثة أشــكال مــن التنظيــم التقني والاجتماعي: الرأسمال، والوسائطية La médialité (وهو مصطلح أعني به منظومة السمعي البصري للقرن الماضي)، والتوثيقية La documentalité اليوم... وهو مصطلح جديد أعني به الوسيط التقني، الذي جعل من ما بعد الحقيقة مسألة ممكنة، أي الاتحاد ما بين القوة المعيارية للوثائق والتسهيلات التي توفرها الوسائط في عصر الويب»[10]. ولعل الفارق فيما يجري في سياقنا الحالي يتمثل في «الجشــع» الذي يحــرك أقلية تتحكّــم في شــركات البيانــات الكبرى، وتستثمرها بشكلٍ غير مسبوق في منطق التبادل والتجارة. والثابت أن هذه النخبة المسيرة لمصير مليارات من المربوطين بشبكات ومواقع الإنترنت

الظاهر أن الرهانات التي تفرضها «الإعلاميات الذهنية» والفلسفة الحاملة لها تستدعي يقظة فكرية وسياسية لحماية مبدأ الاستقلال الذاتي، القاضي باحترام حرية الإنسان في التقدير والتفكير.

9 ـ Marc Dugain et Christophe Labbé, op.cit, p. 193.

10 ـ Maurizio Ferraris, *Post vérité, et autres énigmes*, éd PUF, Paris, 2019, p. 16.

يسترشدون بتصورات فلسفية، وبمواقف من الإنسان والمجتمع والمستقبل، ويعرفون أنهم أصبحوا يمسكون بزمام مقدرات نسبة كبيرة من سكان الأرض، وبممارسة أشرس «إمبريالية» لم يسبق لقوة أن مارستها في تاريخ البشرية، سواء من حيث الوسائل ـ الناعمة في الغالب الأعمّ ـ أو من زاوية المضامين المعروضة.

والظاهر أن المرء يواجه صعوبات ليست هينة لمقاومة سطوة الثورة الرقمية الدائمة، وتتنامى الصعوبة حين يتطلع إلى استنهاض مقومات النظر النقدي. من هنا تبرز الحاجة المضاعفة إلى التسلح بأدوات الرقمي نفسها؛ ولكن باستلهام قوة الأفكار ومقتضيات السؤال؛ للحفاظ على ما تبقى من هوامش الحرية والمبادرة والوجود المستقل، والتثاقف والائتلاف الإنساني. ومن هنا يصعب تصوُّرُ أيِّ أفقٍ إنساني ينزع إلى البحث عن المشترك الإنساني من دون مستندات قيمية وأخلاقية، في طليعتها تلك القِيمَ التي تنحو في اتجاه الحياة، وتلك التي تخدم المجتمع ومصالحه، وتلك التي تستلهم مقوماتها من العقل أو ما هو كوني فيه، ثم القِيَم التي تسير في اتجاه المحبة والتآلف، وذلك في أفق إعادة صياغة قواعد مستدامةٍ للفعل الإنساني الجماعي.

إنّ كل هذا التوصيف للعصر السيبراني الذي يشيئُ الإنسان، يبرز الحاجة إلى المراجعة النقدية، وإلى السير في مبادرة المؤتلف الإنساني، التي لا ينبغي اعتبارها بديلاً لهذا الزمان، بل هي تيارٌ نقديٌّ يسعى لإنقاذ إنسانية الإنسان وأخلاقياته من التشييء، دونما فصاميةٍ ولا خروجٍ على عصر العالم. تيار المؤتلف، والمبادرات المشابهة، هي أعمالٌ ومساعٍ عصرية وإنسانية من أجل التعديل والتصحيح وتقديم إنسانية الإنسان على السوبرمان وعلى شعبوية الآلة، في الوقت نفسه.